من المملوكي إلى العثماني:
الأثر الحضاري والادعاء الديني

> "المداخل المعمارية وتأصيل "الأمانات المقدسة" بين الحقيقة والتوظيف السياسي"

يتشابه مدخل مدرسة السلطان حسن مع مدخل مدرسة أم السلطان شعبان، وهو تشابه ترك أثره الواضح على بعض مداخل العمائر العثمانية في تركيا، مقارنة بالتأثيرات السلجوقية. غير أن الدور الذي أضافه المعمار والفنان المملوكي على هذا العنصر ذي الأصل السلجوقي، سواء من حيث التطوير أو التناسق الجمالي، كان نتاج خبراته الطويلة في تشييد العمائر الحجرية، فضلاً عن الموروث الحضاري المصري العريق.

لقد ظهرت فنون معمارية متنوعة في إسطنبول، وجُلب لها المهرة والصنّاع من مصر وغيرها، وأُجبروا على الإقامة الجبرية لينقطعوا تمامًا لإنجاز نهضة عمرانية لعاصمة السلاطين. ومن هنا انتشرت طرازات أوروبية كالبَاروك والروكوكو خلال القرنين 11-12هـ/17-18م، واستمر تأثيرهما على العمارة الإسلامية حتى أواخر القرن 13هـ/19م.

وقد بدأ هذا التأثير يظهر بوضوح في العمارة العثمانية بعد دخول بلاد المجر في دائرة الإمبراطورية العثمانية سنة 1101هـ/1689م (معاهدة كارلوفيتش). وكان ذلك بداية تحرك تدريجي نحو أوروبا ولا سيما فرنسا. ففي عهد السلطان أحمد الثالث (1115-1143هـ/1703-1730م) بدأ يظهر تطور فني جديد، إذ أُرسل وفد رسمي سنة 1133هـ/1720م إلى باريس برئاسة رسول السلطان، وعاد بتقارير ورسومات وتخطيطات للقصور والحدائق الفرنسية. وقد أدخل هذا الوفد تأثيرات باروكية وروكوكوية انعكست في مرحلة "زهرة التوليب"، التي أثرت في المساجد والقصور والحدائق والبيوت والأسبلة العثمانية.

وكان أول جامع عثماني يتأثر بهذا الطراز هو جامع نور عثمانية في إسطنبول. بدأ بناؤه في عهد السلطان محمود الأول سنة 1161هـ/1748م، وانتهى في عهد السلطان عثمان الثالث سنة 1169 هـ/1755م. يتألف مسقط الجامع من حرم وصحن: الحرم مربع تغطيه قبة ضخمة بقطر 25.75م، تحملها أربعة عقود كبيرة مدعّمة بأربعة أبراج ركنية، ويبرز المحراب بوضوح بشكل نصف دائري خارج جدار القبلة، ويحيط بالحرم رواقان جانبيان من طابقين بعقود باروكية متماوجة، أما الصحن فجاء بشكل نصف بيضي تقريبًا، متأثرًا بالفن الوافد الجديد، مع اختفاء الشادروان من مركزه، وللصحن أروقة مغطاة بقباب صغيرة تستند إلى أعمدة دائرية، تعلو زاويتي رواقه الجنوبي مئذنتان بشرفتين لكل منهما.

المسجد مكسو بالرخام، وتزين جدرانه زخارف باروكية واضحة، مثل العقود المتماوجة والأشكال المحارية وورق الأكانتس وتيجان الأعمدة المتميزة، مما أشار إلى ميلاد أسلوب باروكي جديد في العمارة العثمانية.

وفي سياق متصل، تواصل تركيا اليوم الاهتمام بما يُسمى "الأمانات المقدسة"، وهي مجموعة من المقتنيات التي نُقلت إلى إسطنبول عقب فتح السلطان سليم الأول لمصر عام 1517. وتُحفظ هذه المقتنيات منذ خمسة قرون في "الغرفة الخاصة" بقصر "طوب قابي" في إسطنبول، وتشمل: بردة النبي ﷺ وشعرة من لحيته الشريفة وآثار أقدامه، ومحفظة بستّه الشريف الذي كُسر في غزوة أحد، ورسائل وسيفه، ووعاء طعام يُنسب إلى النبي إبراهيم عليه السلام، وعصا النبي موسى عليه السلام، وسيف النبي داود عليه السلام، وعباءة النبي يوسف عليه السلام، ومفاتيح الكعبة المشرفة، ومحفظة الحجر الأسود، وسيوف خلفاء مسلمين، وبردة السيدة فاطمة رضي الله عنها.

ويؤكد مدير متحف "طوب قابي" مصطفى صبري كوتشوك أشجي أنّ هذه الغرفة خُصصت منذ عهد السلطان محمود الثاني لحفظ الأمانات، وكان حراسها نخبة مدربة من الجنود، يرافق وجودهم تلاوة متواصلة للقرآن بجوار "الخرقة الشريفة" منذ القرن السادس عشر حتى يومنا هذا.

ورغم هذا الاهتمام الشكلي، يلاحظ أن طريقة عرض القطع تستثمر العاطفة الدينية وتوظفها في خدمة محاولة التأكيد على شرعية الدولة العثمانية، التي سعت منذ سليم الأول إلى جمع كل ما يمكن ربطه بالنبي ﷺ ليكون في إسطنبول بدلاً من مكة أو المدينة. وهنا يبرز سؤال مشروع: هل جميع هذه الأمانات أصلية وصحيحة؟ وهل يصح مثلًا أن يُنسب وعاء طعام إلى النبي إبراهيم عليه السلام بعد آلاف السنين؟.

تُظهر المعطيات أن الحضارة العثمانية، التي يفاخر بها الأتراك اليوم، لم تكن نتاجًا أصيلًا خالصًا بهم بقدر ما كانت مزيجًا من حضارات متعددة: الرومانية والسلجوقية والفاطمية والمملوكية. فقد احتفظوا بآثار الروم واستثمروها، وتأثروا بالعمارة السلجوقية، ثم نقلوا صنّاع مصر المملوكية إلى إسطنبول لبناء قصورهم.

وكما قال إيلبير أورتايلي: "لقد نشأ جيل بأكمله في تركيا وهو يسمع قصة القصور العثمانية وإفلاس السلطنة... ومع زيارة الأتراك لعواصم أوروبا أدركوا أن إنفاق السلطنة في القرن التاسع عشر كان متواضعًا بحيث لا يُقارن بإنفاق الدول الكبرى الأخرى".

إن الانبهار الأوروبي والانسلاخ عن الجذور جعل العثمانيين عالقين بين تقليد الآخرين دون تأسيس حضارتهم الخاصة. وكالغراب الذي يقلد مشية الحمامة، فلا هو احتفظ بمشية نفسه، ولا أتقن تقليد الحمامة.

المراجع:

1.أحمد آق وسعيد أورتوك، الدولة العثمانية المجهولة (إسطنبول: وقف البحوث العلمية، 2014).

2.ألبير أورتايلي، إعادة استكشاف العثمانيين، ترجمة: بسام شيحا (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009).

3.محمد صوان، يوميات السلطان: الحوادث الهامة في تاريخ الدولة العثمانية ودلالاتها (الجزائر: دار الروافد، 2020).